مجموعة رسائل الشيخ

عبد الله بن زيد آل محمود

رحمه الله تعالى

المجلد الخامس: أحكام الأضحية ورسائل أخرى

(٥)

الغناء وما عسى أن يقال فيه

من الحظر أو الإباحة

الطبعة الثالثة- الدوحة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

طبعة جديدة بصف وإخراج جديد

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست

الفهرست ١
الغنَاء ومَا يقَال فِيهِ ٢
أحاديث الحظر ٢
أحاديث الإِباحة ٣
خلاف العلماء في مسألة سماع الغناء والمعازف وأدلتهم ٥
[سؤال عن قول عمر رضي الله عنه: الغناء زاد المسافر . والجواب عنه] ٦
حديث ليلى الأخيَليَّة مع الحجَّاج بن يوسف ٢١

الغنَاء ومَا يقَال فِيهِ

لقد اختلف العلماء في سماع الغناء وآلات اللهو قديمًا وحديثًا وأكثروا القول فيه بل كتبوا فيه المصنفات، واستقصوا الروايات، ونحن نذكر أقوى ما ورد من الأحاديث في هذا الباب، ثم ملخص اختلاف العلماء وأدلتهم، ثم ما الحق الجدير بالاتباع.

أحاديث الحظر

١- «عن عبد الرحمن بن غنم قال: حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري أنه سمع النبي ﷺ يقول: **لَيَكُونَنّ مِنْ أُمَّتِي قوم يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِير وَالخَمْر وَالْمَعَازِف**». أخرجه البخاري بهذا الشك بصورة التعليق وابن ماجه من طريق ابن محيريز عن أبي مالك بالجزم.

٢- «عَنْ نَافِعٍ مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ صَوْتَ زَمَّارَةِ رَاعٍ فَوَضَعَ أُصْبُعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ وَعَدَلَ رَاحِلَتَهُ عَنِ الطَّرِيقِ وَهُوَ يَقُولُ **يَا نَافِعُ أَتَسْمَعُ** فَأَقُولُ نَعَمْ. فَيَمْضِي حَتَّى قُلْتُ لاَ فَوَضَعَ يَدَيْهِ وَأَعَادَ رَاحِلَتَهُ إِلَى الطَّرِيقِ وَقَالَ **رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَسَمِعَ صَوْتَ زَمَّارَةِ رَاعٍ فَصَنَعَ مِثْلَ هَذَا**». رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، قال أبو علي اللؤلؤي: سمعت أبا داود يقول: وهو حديث منكر.

٣- «عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِّ ﷺ قَالَ «**فِي هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ**». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَا رَسُولَ اللهِّ وَمَتَى ذَاكَ قَالَ «**إِذَا ظَهَرَتِ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ وَشُرِبَتِ الْخُمُورُ**»». رواه الترمذي وقال: هذا حديث غريب.

٤- «عَنْ أَبِى أُمَامَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَنِي رَحْمَةً وَهَدًى لِلْعَالَمِينَ وَأَمَرَنِي أَنْ أَمْحَقَ الْمَزَامِيرَ وَالْكَبَارَاتِ** - يَعْنِي الْبَرَابِطَ - وَالْمَعَازِفَ وَالأَوْثَانَ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَدُ فِي

الْجَاهِلِيَّةِ». رواه أحمد عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمن. قال البخاري: عبيد الله بن زحر ثقة، وعلي بن يزيد ضعيف. وقال أبو مسهر في عبيد الله بن زحر: إنه صاحب كل معضلة. وقال يحيى بن معين: إنه ضعيف. وقال مرة: ليس بشيء. وقال ابن المديني: منكر الحديث. وقال ابن حبان: يروي موضوعات عن الأثبات، وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالطامّات.

٥- عن ابن مسعود: «**الْغِنَاءُ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ**». رواه أبو داود مرفوعًا والبيهقي مرفوعًا وموقوفًا. وفي إسناده شيخ لم يسم، وفي بعض طرقه ليث بن أبي سليم وهو متفق على ضعفه كما قال النووي، وقال الغزالي: رَفْعُه لا يصح. ومعناه أن المغني ينافق لينفق. وقد زدنا هذا وما قبله إتمامًا للبحث.

وقد رأيت أنه لا يصح من هذه الأحاديث إلا الأول، وستعلم مع ذلك ما قيل في إعلاله، وما رُوي غيره أوهى منه، إلا أثرًا عن ابن مسعود في تفسير اللهو فقد صححه ابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي.

***

أحاديث الإباحة

١- «عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ تُغَنِّيَانِ بِغِنَاءِ بُعَاثَ، فَاضْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ وَحَوَّلَ وَجْهَهُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَانْتَهَرَنِي، وَقَالَ مِزْمَارَةُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**دَعْهُمَا يا أبا بكر فإنها أيام عيد**». وفي رواية: «**يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا**». فَلَمَّا غَفَلَ غَمَزْتُهُمَا فَخَرَجَتَا، تقول: لما غفل أبو بكر». رواه البخاري في سنة العيد، وفي أبواب متفرقة، ومسلم في العيد، والنسائي في عِشْرة النساء، وإنما أنكر أبو بكر لظنه أن النبي ﷺ كان نائمًا لم يسمع.

٢- «عن خَالِدُ بْنُ ذَكْوَانَ عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ قَالَتْ دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ بُنِيَ عَلَيَّ، فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي، وَجُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ، يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**لاَ تَقُولِي هَكَذَا، وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**»». رواه أحمد والبخاري وأصحاب السنن إلا النسائي.

٣- «عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَاطِبٍ الْجُمَحِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**فَصْلٌ بَيْنَ الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ الدُّفُّ وَالصَّوْتُ فِي النِّكَاحِ**»». رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم.

٤- «عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى قُرَظَةَ بْنِ كَعْبٍ وَأَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ فِي عُرْسٍ وَإِذَا جَوَارٍ يُغَنِّينَ فَقُلْتُ أَنْتُمَا صَاحِبَا رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمِنْ أَهْلِ بَدْرٍ يُفْعَلُ هَذَا عِنْدَكُمْ فَقَالَ اجْلِسْ إِنْ شِئْتَ فَاسْمَعْ مَعَنَا وَإِنْ شِئْتَ اذْهَبْ قَدْ رُخِّصَ لَنَا فِي اللَّهْوِ عِنْدَ الْعُرْسِ». أخرجه النسائي والحاكم وصححه.

٥- «عن بريدة قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ مَغَازِيهِ فَلَمَّا انْصَرَفَ جَاءَتْ جَارِيَةٌ سَوْدَاءُ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ نَذَرْتُ إِنْ رَدَّكَ اللهُ سَالِمًا أَنْ أَضْرِبَ بَيْنَ يَدَيْكَ بِالدُّفِّ وَأَتَغَنَّى. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ «**إِنْ كُنْتِ نَذَرْتِ فَاضْرِبِي وَإِلاَّ فَلاَ**». فَجَعَلَتْ تَضْرِبُ فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَهِيَ تَضْرِبُ ثُمَّ دَخَلَ عَلِيٌّ وَهِيَ تَضْرِبُ ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ وَهِيَ تَضْرِبُ ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَأَلْقَتِ الدُّفَّ تَحْتَ اسْتِهَا ثُمَّ قَعَدَتْ عَلَيْهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَخَافُ مِنْكَ يَا عُمَرُ إِنِّي كُنْتُ جَالِسًا وَهِيَ تَضْرِبُ فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَهِيَ تَضْرِبُ ثُمَّ دَخَلَ عَلِيٌّ وَهِيَ تَضْرِبُ ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ وَهِيَ تَضْرِبُ فَلَمَّا دَخَلْتَ أَنْتَ يَا عُمَرُ أَلْقَتِ الدُّفَّ**»». رواه أحمد والترمذي وصححه وابن حبان والبيهقي.

* * *

خلاف العلماء في مسألة سماع الغناء والمعازف وأدلتهم

في الباب أحاديث أخرى وما أوردناه هو أصح ما ورد فيه مما يحتج به، وأحاديث الحظر التي تقدمت تحظر المعازف وهي آلات اللهو، والدف منها قطعًا، وغناء القِيان وهن الجواري المغنيات، وقد رأيت في أحاديث الإباحة إباحة العزف بالدف وغناء الجواري وانعقاد نذره، ومما ينبغي الالتفات إليه أن كلام أبي بكر وكلام عامر بن سعد يدلاّن على أن الناس كانوا يتوقعون حظر السماع واللهو لا سيما أصوات النساء، لولا النص الصريح بالرخصة، وتكراره في الأوقات التي جرت عادة الناس بتحري السرور فيها، كالعيد والعرس وقدوم المسافر، فأحاديث الإباحة مرجحة بصحتها، وضعف مقابلها ونكارته، وبكونها على الأصل في الأشياء وهو الإباحة، وبموافقتها ليسر الشريعة وسماحتها وموافقتها للفطرة، وهذا لا ينافي أن الانصراف الزائد إلى اللهو والإسراف فيه ليس من شأن أهل المروءة والدين، ولهذا رأيت كثيرًا من الأئمة العلماء الزهاد قد شدد النكير على أهل اللهو لما كثر وأسرف الناس فيه عندما عظم عمران الأمة واتسعت مذاهب الحضارة فيها، حتى جاء أهل التقليد من المصنفين فرجحوا أقوال الحظر وزادوا عليها في التشديد، حتى حرم بعضهم سماع الغناء مطلقًا، وسماع آلات اللهو جميعها، إلا طبل الحرب ودف العرس، وزعموا أنه دف مخصوص لا يُطرِب، وأنه غير دف أهل الطرب، وهاك أجمع كلام يحكي خلاف علماء الأمة وأدلتهم في هذه المسألة بالاختصار، وهو كلام الشوكاني في **نيل الأوطار**، قال بعدما أورد ما تقدم من أحاديث الحظر:

وقد اختُلِفَ في الغناء مع آلة من آلات الملاهي وبدونها، فذهب الجمهور إلى التحريم مستدلين بما سلف، وذهب أهل المدينة ومن وافقهم من علماء الظاهر وجماعة من الصوفية إلى الترخيص في السماع ولو مع العود واليراع، وقد حكى الأستاذ أبو منصور البغدادي الشافعي في مؤلفه في **السماع** أن عبد الله بن جعفر كان لا يرى بالغناء بأسًا، ويصوغ الألحان لجواريه،

ويسمعها منهن على أوتاره، وكان ذلك في زمن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه. وحكى الأستاذ المذكور مثل ذلك أيضًا عن القاضي شريح، وسعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، والزهري، والشعبي.

وحكاه صاحب **الإمتاع** عن أبي بكر بن العربي، وجزم بالإباحة الأدفوي، هؤلاء جميعًا قالوا بتحليل السماع مع آلة من الآلات المعروفة، وأما مجرد الغناء من غير آلة فقال الأدفوي: إن الغزالي في بعض تآليفه الفقهية نقل الاتفاق على حله، ونقل ابن طاهر إجماع الصحابة والتابعين عليه، ونقل التاج الفزاري وابن قتيبة إجماع أهل المدينة عليه، وقال الماوردي: لم يزل أهل الحجاز يرخصون فيه في أفضل أيام السنة المأمور فيها بالعبادة والذكر.

***

[سؤال عن قول عمر رضي الله عنه: الغناء زاد المسافر . والجواب عنه]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سؤال وُجه إليّ عن قول عمر رضي الله عنه: **الغناء زاد المسافر**. هل هذا القول صحيح عنه أو غير صحيح؟ والجواب يُعرف مما يلي:

إننا لسنا من المقلّدين لأحد في قول يقوله ويرتضيه وإنما نبحث عن الحق في مظانه ثم نقول به، وقول عمر هذا: الغناء زاد المسافر. لم نقف على سنده، وعلى فرض صحته أو عدم صحته فإن الغناء للمسافر مباح وليس بحرام، بل الغناء كله مباح للمسافر وغير المسافر، وضرب الطبل عليه كله مباح، إلا إذا صَدَّ عن ذكر الله وعن الصلاة، أو شجع على انتهاك المحرمات أو شرب المسكرات، وماعدا ذلك فإنه مباح بلا شك، لأنه من لهو الدنيا الذي ذكره الله في كتابه بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [الحديد: ٢٠]. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ [الجمعة: ١١]. وهذا اللهو الذي ذكره الله هو أن دحية بن خليفة الكلبي لما قدم بالعير من الشام أخذوا يضربون بالدف ليعلموا الناس بوصول العير.

وقد قال ابن الجوزي في **صيد الخاطر**: إن الناس في مزاولتهم للأعمال الثقيلة يتروحون بالغناء ويستريحون به، لكونه يخفّف عنهم الآلام ويلطّف لهم المشاق العظام، حتى إنه ليُنسيهم الشراب والطعام، كما قيل:

لها أحاديث من ذِكراك تشغلها ... عن الشراب وتُلهيها عن الزاد

لها بوجهك نور تستضيء به ... عند المسير وفي أعقابها حادي

إذا اشتكت من كلال السير أوعدها ... روح القدوم فتحيا عند ميعادي

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم عند بنائهم لمسجد النبي ﷺ يغنون ويرتجزون بقولهم:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلينا

فأنزِلنْ سكينة علينا ... وثبتِ الأقدام إنْ لاقينا

إن الألى لقد بغوْا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

يرفعون بذلك أصواتهم أبينا... أبينا. وأحيانًا يقولون:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

ورسول الله يجيبهم بقوله:

«اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إِلا عَيْشُ الآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ، وَالْمُهَاجِرَةِ».

وهذا ليس بشعر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]. وإنما هي كلمة جرت على لسانه لم يقصد بها شعرًا، ومن شرط الشعر أن يكون مقصودًا. ومثله قوله: «هَلْ أَنْتِ إِلا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ».

فقول عمر رضي الله عنه: **إن الغناء زاد المسافر**. ليس بإثم، ورسول الله كان له حادٍ يحدو بالإبل- أي يُغني بها لتنشط- فهذا وأمثاله مباح بلا شك، وكان عبد الله بن رواحة يحدو بالجيش عند دخول رسول الله ﷺ مكة ويقول في حداه:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضربًـــا يزيـــل الهـــام عـــن مقيلـــه ويـــذهل الخليـــل عـــن خليلـــه

يا رب إني مؤمن بقيله

وجاءت امرأة إلى عمر رضي الله عنه في خصومة فقال لها:

إن النســـاء شـــياطين خُلقـــن لنـــا نعـــوذ بـــالله مـــن شر الشـــياطين

فقالت له الـمرأة: لا، إن الشاعر لم يقل بهذا وإنما قال:

إن النســـاء ريـــاحين خلقـــن لكـــم فكلكـــم يَشـــتهي شـــمَّ الريـــاحين

وكان رضي الله عنه يَعُس بالـمدينة بالليل فسمع امرأة تنشد وهي تقول:

تطـــاول هـــذا الليـــل واســـودّ جانبـــه وأَرّقنـــي ألاّ خليـــل أُلاعبـــه

ألاعبـــه طـــورًا وطـــورًا كـــأنما بَـدا قمـرًا في ظلمـة الليـل حاجبـه

فـــوالله لـــولا الله لا ربَّ غـــيره لحـرك مـن هـذا السـرير جوانبـه

مخافـــة ربي و الحيـــاء يصـــونني وحِفظًـا لـبعلي أن تُنـال مراكبُـه

إن بعض الـملوك يولعون بمحبة الغناء وضرب الدف عليه خاصة في السمر بالعشاء، وممن نُسب إليه ذلك هارون الرشيد، ويترجح عندي أن إلصاق هذه التهمة به ليست بصحيحة ولا صريحة، لكونه قد قسم الزمان شطرين: عام للغزو وعام للحج، وما كان كذلك فإنه يَبْعُد أن يشتغل بالغناء الذي هو معدود من الفضول، وعلى فرض صحة نسبته إليه فإن هذا من اللهو اليسير الذي لا يتمحض لإحباط حسناته، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة.

وفي فتح مكة لما قدم رسول ﷺ خرجت النساء والرجال والصبيان وجعل النساء يصرخن ويبكين خوفًا على أزواجهن وأولادهن، وكنَّ يضربن وجوه الخيل بخمرهن، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك لأبي بكر: هل قال حسان في مثل هذا شيئًا؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: «ما قال؟» فأنشد:

عـــدمنا خيلنـــا إن لم تروهـــا تثـــير النقـــعَ موعـــدها كـــداءُ

ينـــــازعن الأعنّـــــة مصـــــغياتٍ عـــلى أكتافهـــا الأســـل[1] الظـــماءُ
تظـــــل جيادنـــــا متمطـــــرات يُلطّمهـــــن بـــــالخمر النســـــاء

وقد اشتهر أهل المدينة بمحبتهم للغناء كما حكاه عنهم أبو الفرج الأصبهاني، وكانوا كثيرًا ما يتغنون بشعر جبلة بن الأيهم الغسّاني لكونه من الحنين إلى الوطن؛ لأن أكثر المغنيات هن من السبايا، وقصة جبلة بن الأيهم هي أن الغساسنة وهم ملوك الشام في قديم الزمان، لكنهم كانوا تحت سلطة النصارى، ولما تدفقت جحافل الصحابة على بلاد الشام ومصر والعراق وسائر البلدان وأجلوا النصارى، دخل جبلة بن الأيهم في الإسلام علانية فحج زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعند الطواف بالبيت وطئ إزارَه رجلٌ من بني فزارة فانحل، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزاري، فشكاه إلى عمر، فقال له عمر: ما حملك على ذلك؟ القصاص بينكما. فقال له جبلة: أيقتص من الأشراف للسوقة؟ فقال له عمر: نعم، ساوى بينكما الإسلام. فقال: أمهلني حتى أعود. فقال: قد أمهلتك؟ فقام جبلة وأمر أصحابه بأن يشدوا على رحالهم، ورجع إلى بلده ففعلوا، فترك الحج عام ذلك، فندم أشد الندم وأنشد أبياته الشهيرة وهي:

تَنصّـــَرتِ الأشراف مـــن عـــار لطمـــة وما كـان فيهـا لـو صـبرت لهـا ضرر
تكنّفنـــــي منهـــــا لجـــــاج ونخـــــوة فبعـت بهـا العـين الصـحيحة بـالعور
فيـــا ليـــت أمـــي لم تلـــدني وليتنـــي ثويـــت أســـيرًا في ربيعـــة أو مضـــر
ويـــا ليتنـــي أرعـــى الـــمخاض بقفـــرة أجـــالس قـــومي بالعشـــيات والبكـــر
ويـــا ليـــت لي بالشـــام أدنـــى معيشـــة أجالس قومي عـادم السـمع والبصـر
أديـــن بـــما دانـــوا بـــه مـــن شريعـــة ولم أنكـر القـول الـذي قـال لي عمـر

ولما بلغ عمر هذه الأبيات وجّه إليه رجلاً من أصحابه وهو جثامة بن مساحق الكناني، فلما

(١) الأسَل: الرماح.

انتهى إليه الرجل بكتاب عمر أجاب إلى كل شيء سوى الإسلام[١].

---

(١) قال الرجل فتوجهت إليه فلما انتهيت إلى بابه رأيت من البهجة والحسن والسرور ما لم أر بباب هرقل مثله، فلما سلمت ردّ السلام ورحّب بي وألطفني ولامني على تركي النزول عنده، ثم أقعدني على شيء، لم أثبته، فإذا هو كرسي من ذهب فانحدرت عنه فقال: ما لك؟ فقلت: إن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك. فقال جبلة أيضًا مثل قولي في النبي ﷺ حين ذكرته وصلى عليه، ثم قال: يا هذا إنك إذا طهرت قلبك لم يضرك ما لبسته ولا ما جلستَ عليه. ثم سألني عن الناس وألحف في السؤال عن عمر، ثم جعل يفكر حتى رأيت الحزن في وجهه فقلت: ما يمنعك من الرجوع إلى قومك والإسلام؟ قال: أبعد الذي قد كان؟ قلت: قد ارتد الأشعث بن قيس ومنعهم الزكاة وضربهم بالسيف ثم رجع إلى الإسلام، فتحدثنا مليًّا ثم أومأ إلى غلام على رأسه فولّى يحضر، فما شعرت إلا بعشر جوار يتكسرن من الحلي ثم قال للجواري: أطربنني، فخفقن بعيدانهن يغنين:

لله دَر عصـــــابة نـــــادَمتُهم ... يومًـــا بجلَّـــق في الزمـــان الأول

بـــيض الوجـــوه كريمـــة أحســـابهم ... شُـــمّ الأنـــوف مـــن الطـــراز الأول

يغشـــون حتـــى لا تهـــرّ كلابُهـــم ... لا يســـألون عـــن الســـواد الـــمقبل

فاستهل واستبشر وطرب ثم قال: زدننا فاندفعن يغنين:

لـــمن الـــدار أقفـــرت بمعـــان ... بـــين شـــاطئ اليرمـــوك فالصـــمان

فحمـــى جاســـم فأوديـــة الصـــفر ... مغنـــــى قبائـــــل وهجـــــان

فالقريـــات مـــن بـــلاس فداريـــ ... ـــيا فســـكاء فالقصـــور الـــدواني

ذاك مغنـــى لآل جفنـــة في الدهـــ ... ـــر وحـــق تعاقـــب الأزمـــان

قـــد دنـــا الفصـــح فالولائـــد ينظمـــ ... ـــن سراعًـــا أكلـــة الـــمرجان

لم يعللـــن بالـــمغافير والصمـــ ... ـــغ ولا نقـــف حنظـــل الشـــريان

قـــد أراني هنـــاك حَـــقَّ مكـــينٍ ... عنـــد ذي التـــاج مقعـــدي ومكـــاني

فقال أتعرف هذه المنازل؟ قلت: لا. قال: هذه منازلنا في ملكنا بأكناف دمشق، وهذا شعر ابن الفريعة حسان بن ثابت. قلت: أما إنه مضرور البصر كبير السن. قال: يا جارية هاتي. فأتته بخمسمائة دينار وخمسة أثواب من الديباج فقال: ادفع هذا إلى حسان وأقرئه مني السلام. ثم راودني على مثلها فأبيت، فبكى ثم قال

وحاصل القول في الغناء أنه كلام مقتبس من الشعر، ويتمشى على طريقة الشعر، كما قال النبي ﷺ في الشعر: «**إنه كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح**»[١] وهكذا الغناء، وقد قال رسول الله: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ رَجُلٍ قَيْحًا يَرِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**» متفق عليه. وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً**».

وكان النبي ﷺ ينصب لحسان بن ثابت منبرًا في المسجد ينافح فيه عن الله ورسوله، ويقول: «**اهجهم يا حسان، فإن شعرك أشد عليهم من رشق النبل**»[٢]، والله تعالى يقول:

لجواريه: أبكينني فوضعن عيدانهن وأنشأن يقلن قوله: تنصرت الأشراف من عار لطمة... إلخ. ثم بكى وبكيت معه حتى رأيت دموعه تجول على لحيته كأنها اللؤلؤ، ثم سلمت عليه وانصرفت. فلما قدمتُ على عمر سألني عن هرقل وجبلة فقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها، فقال أورأيت جبلة يشرب الخمر؟ قلت: نعم. قال: أبعده الله، تعجل فانية اشتراها بباقية فما ربحت تجارته، فهل سرّح معك شيئًا؟ قلت: سرّح إلى حسان خمسمائة دينار وخمسة أثواب ديباج. فقال: هاتها. وبعث إلى حسان فأقبل يقوده قائده حتى دنا فسلم، وقال: يا أمير المؤمنين إني لأجد أرواح آل جفنة. فقال عمر رضي الله عنه: قد نزع الله تبارك وتعالى لك منه على رغم أنفه وآتاك بمعونة. فانصرف عنه وهو يقول:

إن ابن جفنة من بقية معشر ... لم يغذهم آباؤهم باللوم
لم ينسني بالشام إذ هو ربها ... كلا ولا متنصرًا بالروم
يعطى الجزيل ولا يراه عنده ... إلا كبعض عطية المذموم
وأتيته يومًا فقرب مجلسي ... وسقى فروّاني من الخرطوم

فقال له رجل: أتذكر قومًا كانوا ملوكًا فأبادهم الله وأفناهم؟! فقال: ممن الرجل؟ قال: مزني. قال: أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله ﷺ لطوقتك طوق الحمامة. وقال للرجل الذي جاء من عند جبلة: ما كان خليلي ليخل بي، فما قال؟ قال: قال لي: إن وجدته حيًّا فادفعها إليه، وإن وجدته ميتًا فاطرح الثياب على قبره وابتع بهذه الدنانير بُدنًا فانحرها على قبره. فقال حسان: ليتك وجَدتني ميتًا ففعلت ذلك بي.

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى من حديث عائشة.

(٢) أخرجه مسلم من حديث عائشة.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧].

فالشعر بما أنه يُمدح من جهة أحيانًا ويذم أحيانًا فكذلك الغناء نفس الشيء، والأصل فيه الإباحة، لكن بعض العوام يغلطون في إباحته، ويغالون بالقول بتحريمه عندما يسمعون أن رجلاً من الذين يدّعون أنهم يأمرون بالـمعروف وينهون عن الـمنكر سمع رجلاً يغني وهو يعمل عند السواني - أي الإبل التي يعمل عليها قبل حفر الآبار بالآلات- فلما سمع الغناء نزل عليه في ناحية عمله وأخذ يضربه ضربًا شنيعًا حتى فقأ عينه، وما فعله هذا فإنه عين الـمنكر البعيد عن الـمعروف، وفي هذا الزمان وفي بعض البلدان نجد من يعيب على الناس ضرب الدف في العرس، وهذا من نتيجة الجهل، فإن ضرب الدف والغناء في العرس سنة، لقول النبي ﷺ: «فَرق مَا بَيْنَ الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ الضَّرْبَ بِالدُّفِّ»[1]. وقال: «أعلنوا النكاح واضربوا فيه بالدف»[2] ولـما جهزت عائشة ابنة يتيمة عندها إلى زوجها سألها رسول الله: «كيف صنعتم؟» فقالت: سلمناها إلى زوجها، ودعونا لها بالبركة، ثم رجعنا. فقال: «هلاّ استصحبتم معكم دُفًّا فإن الأنصار يعجبهم اللهو، وقلتم:

أتينـــــاكم أتينـــــاكم	وحيّانـــــا وحيّـــــاكم
ولـــولا الـــذهب الأحمـــ	ـــر ومـا حلـت بـواديكم
ولـــولا الحنطـــة السـمرا	لـمـا سـمنت عـذاريكم

فهذا كله من الشعر الـمباح، أو من الغناء الـمباح، وحسبك إجازة الرسول ﷺ له. وقد أدخلت الصوفية الغناء في ضمن الزهديات، فكانوا يرقصون عند سماعه ويتساقطون، وهم

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث محمد بن حاطب.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث عائشة.

الذين عنى الشاعر بقوله:

تُـــلي الكتـــاب فـــأطرقوا لا خيفـــة لكنّـــه إطـــراق ســـاهٍ لاهـــي

وأتـــى الغنـــاء فكـــالحمير تنـــاهقوا تـــالله مـــا رقصـــوا لأجـــل الله

دف ومزمـــــار ونغمـــــة شـــــادن فمتـــى رأيـــت عبـــادة بملاهـــي

فهؤلاء من الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا؛ لأنها لا تجتمع محبة الله وعبادته وشكره وذكره مع محبة الغناء والرقص والتساقط من وجده، كما قيل:

حـــب القـــران وحـــب ألحـــان الغنـــا في قلـــب عبـــد لـــيس يجتمعـــان

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنه وإن نقل عن أهل المدينة وغيرهم استعمالهم للغناء واستحبابهم له فلم يقل أحد من علمائهم أنه مستحب في الدين ومختار في الشرع أصلاً، بل كان فاعل ذلك يرى مع ذلك كراهته، وأن تركه أفضل، أو يرى أنه من الذنوب، وغايته أن يطلب سلامته من الإثم، أو يراه مباحًا.

أما الغناء الذي يتمحض في الزهد أي لا يفضي إلى الوجد ولا الرقص ولا التساقط من أجله فهذا لا بأس به كقولهم:

يـــا غاديًـــا في غفلـــة ورائحـــا إلى متـــى تستحســـن القبائحـــا

وكـــم إلى كـــم لا تخـــاف موقفـــا يســـتنطق الله بـــه الجوارحـــا

يـــا عجبًـــا منـــك وأنـــت مبصـــر كيـــف تجنبـــت الطريـــق الواضـــحا

وسأل الإمامَ أحمد رجلٌ فقال: يا أبا عبد الله هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار أي شيء تقول فيها؟ فقال: مثل أي شيء. قال: يقولون:

إذا مـــــا قـــــال لي ربي أمـــا اســـتحييت تعصـــيني

وتخفـــي الـــذنب مـــن خلقـــي وبالعصـــيان تـــأتيني

فقال: فدخل بيته ورد الباب، فسمعت نحيبه من داخل البيت يردد وهو يقول هذه

الأشعار. ومثله الغناء الذي يهيج الحزن ويدعو إلى الندب وتعداد محاسن الميت، فهو عين النياحة المحرمة، ولا يوجد مثل هذا المكروه في زماننا أو بلداننا.

وسُمي الغناء غناءً من أجل تحسين الصوت به، كما ورد في الحديث عن أبي هريرة «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ**» رواه البخاري، ومثله عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ - أي استمع - مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ**». متفق عليه.

ولما استمع النبي ﷺ إلى أبي موسى الأشعري أعجبته قراءته، وقال: «**لَقَدْ أُوتِيَ أَبُو مُوسَى مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»[1] وقد قيل:

تغنَّ بالشعر إذا ما كنت قائله ... إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وصنف أبو الفرج الأصبهاني كتابًا سماه **الأغاني** وهو كتاب واسع العلم والمعرفة، يشتمل على فنون من التاريخ والسير وسائر العلوم المختلفة، لكن تسميته بالأغاني حطت من قدره عند الناس، لكون أكثر الناس يعتقدون التحريم للأغاني كلها تقليدًا بدون بصيرة وبدون فرقٍ بين النافع والضار. وطريقة أبي الفرج الأصبهاني في كتابه أنه يأخذ بيتًا أو بيتين فيجعلهما ميزانًا للغناء، وربما ضربوا الدفوف على التغني بهما أو بأحدهما، والغناء على إطلاقه يشتمل على النافع وعلى الضار، مثل ما قال النبي ﷺ في الشعر: «**إنه كلام، حسنه حسن وقبيحه قبيح**»[2].

وقال العلامة ابن الجوزي: اعلمْ أن سماع الغناء يجمع شيئين: أحدهما: أنه يلهي القلب عن الذكر والصلاة وعن التفكير في عظمة الله والقيام بخدمته، والثاني: يميل صاحبه إلى اللذات العاجلة التي تدعو إلى استيفائها من جميع الشهوات الحسية وأعظمها النكاح.

فهذا هو الغناء المذموم، لكن قسمًا منه وهو الأكثر مباح، وهو غناء الحداة، وغناء جيوش الغزو والمبارزين في القتال مما يجعلهم يندفعون بداعي الشوق والغناء إلى المبارزة والتضحية

---

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى من حديث عائشة.

بالنفس والنفيس دون الدين والوطن، وهذا مما لا شك في إباحته، وقد كان للنبي ﷺ حادٍ يحدو بالجيوش بغنائه فيشتد سيرُها تبعًا لصوته حتى يطأ بعضها بعضًا من التزاحم، كله تبعًا لرقة صوته بالغناء، حتى قال النبي ﷺ لحاديه: «يَا أَنْجَشَةُ لاَ تَكْسِرِ الْقَوَارِيرَ»[١]. يعني النساء.

والنبي ﷺ كان رحب الصدر لسماع الشعر والغناء أحيانًا كما ثبت «عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ رَدِفْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ «هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْئًا». قُلْتُ نَعَمْ قَالَ «هِيهِ». فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ «هِيهِ». ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا فَقَالَ «هِيهِ». حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ». رواه مسلم.

ومثله حين أرى عائشة لعب الحبشة وكانوا يلعبون بحرابهم، وكان يقول لها: «حسبك» وهي تقول: أمهلني أنظر إليهم. وذلك في يوم عيد، ثم قال: «لِتَعْلَمَ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا سعة» أو قال: «فُسْحَةً»[٢]، ومثله دخول أبي بكر على عائشة في بيتها وعندها جوارٍ يضربن بالدف فنهرهن أبو بكر وقال: مزمارة الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فرفع رسول الله ﷺ رأسه وكان مضطجعًا وقال: «دَعْهَا يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا، وَهَذَا عِيدُنَا أهل الإسلام»[٣].

والغناء على إطلاقه يحث على الشجاعة والإقدام وعلى الكرم، ويساعد على مزاولة الأعمال الثقيلة بحيث لا يصيب من يزاولها مس التعب وقد قيل:

ولـولا خِـلال سَـنها الشـعر مـا درى بغـاة النـدى مـن أيـن تـؤتى الـمكارم

وحسبك إنشاد كعب بن زهير في عروسه، وكان النبي ﷺ قد أظهر قتله، فنزل ليلاً عند رجل من الأنصار وشهد صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، وبعد الصلاة جلس بين يدي رسول الله، ثم قال: يا رسول الله أرأيت إن جاءك كعب بن زهير تائبًا نادمًا أكنت تقبل منه؟ قال: «نعم»، ثم قال: أنا كعب بن زهير، وقد قلت قصيدة أستأذنك في سماعها. فقال: «قل». فأنشد قصيدته

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس.

(٢) أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة.

(٣) متفق عليه من حديث عائشة.

الشهيرة وهي:

بانـت سـعاد فقلبـي اليـوم متبـول متـيم إثرهـا لم يُفْـدَ مكبـول

وسعاد هي عروس الشاعر.

وهي تدل بفحواها - مع محبته لها - على أن رسول الله ﷺ أحب وأجل منها، وقد قال أهل الأدب إذا كان مدح فالنسيب مقدم؛ ومعنى بانت سعاد: فارقت، وقلبي اليوم متبول: أي هيَّمه الحب، متيم، أي: مُعَبَّد، إثرها: أي في طلبها، لم يُفد مكبول أي: أسير الحب لم تفده بوصل ثم قال:

ومـا سـعاد غـداة البـين إذ رحلـوا إلا أغـن غضـيض الطـرف مكحـول

إن من عادة الأعراب إذا انتقلوا من منزل إلى منزل آخر فإن الـمرأة تتجمل غاية التجمل، ومنه تكحيل عينيها لعلمها أن الناس سينظرون إليها، ثم قال:

هيفـاء مقبلـة عجـزاء مـدبرة لا يُشـتكى قِصـر منهـا ولا طـول

تجلـو عـوارض ذي ظلـم إذا ابتسـمت كأنـه مَنهـل بـالراح معلـول[1]

ثم ليتأمل العاقل وصف هذا الشاعر لزوجته أو لعروسه بمسمع من رسول الله ﷺ وقد أجازه، فوصفها بأنها هيفاء، أي ضامرة البطن ويعدونها من محاسن الـمرأة ثم قال: عجزاء مدبرة، فوصفها بكبر عجيزتها لكون الرجل قصاب يحب الحسن والسمن، لا يُشتكى منها قصر، لكون شر النساء القصار الحباتر، ولا طول لكون الـمرأة إذا تجاوزت الطول الـمعتاد فإنها تكون مشوهة، ثم وصف ثغرها فقال: تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت، فالعوارض هي: البراطم، والظَلْم بالفتح هو: ماء يخرج من أسنان الأبكار، ووصف حلاوته بماء الـمطر الـممزوج بالراح، أي الخمر، أي من شدة حلاوته، ولم ينكر النبي ﷺ عليه شيئًا من ذلك:

---

(١) ذكره البيهقي في السنن الكبرى من حديث عبد الرحمن بن كعب بن زهير.

فعـانِق وقبـل وارتشـف مـن رضـابها فعدلك عـن ظلـم الحبيـب هـو الظلـم[١]

والحاصل أن الغناء مباح، وأخذ الأجرة عليه مباح، وكذلك ضرب الدف والحداء كل هذا من لهو الدنيا المباح في الأصل، وسُمع من ابن عمر عند منصرفه من عرفة يقول:

إليـــك تعـــدو قلقًـــا وضـــينها معترضًـــا في بطنهـــا جنينُهـــا

مخالفًا دين نصارى دينُها

ونظير هذا أن رجلاً من سكنة الإمارات زار حبيبته، وركب على ناقته، فجعلت الناقة تتلفت إلى الخلف وتحن إلى مألفها وهو يُلحُّ عليها بالضرب لتسير إلى الأمام جهة محبوبته وأنشد:

هـوى نـاقتي خلفـي وقـدامي الهـوى وإني وإياهـــا لـــمختلفان

وقد وجّهت امرأة أرملة سؤالاً قائلة: إنني امرأة مات عني زوجي ولي منه عدد من العيال، وليس لي من كسب إلا من الغناء وضرب الدف، فهل كسبي عليهم حلال أو حرام؟.

فالجواب: إننا متى قلنا بإباحة الغناء فإننا نقول بإباحة ما يترتب عليه من الأجرة، إذ لا يمكن أن يبذل أمثال هؤلاء نفعَهم فيه بدون عوض، والنبي ﷺ قد أثاب بعض الشعراء، وقال: «يَأْبَوْن إِلاَّ أَنْ يَسْأَلُونِي وَيَأْبَى اللَّهُ لِيَ الْبُخْلَ»[٢]، كما أثاب وفد بني تميم حين قدموا عليه وفيهم شعراؤهم ومنهم عطارد بن حاجب التميمي في أشراف من بني تميم، جاؤوا في أسرى بني تميم الذين أخذتهم سرية عيينة بن حصن الفزاريّ فقالوا: جئنا لنفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: «أذنت لخطيبكم»، فقام عطارد فخطب فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: «قم فأجب الرجل»، فقام ثابت فخطب وأجابه، وقام الزبرقان بن بدر فقال:

نحـــن الكـــرام فـــلا حـــي يعادلنـــا منـــا الـــملوك وفينـــا تنصـــب البيـــع

وكـــم قســـرنا مـــن الأجيـــاد كلهـــمُ عنـــد النهـــاب وفضـــل العـــز يُتبـــع

---

(١) وهذا البيت ليس من قصيدة (بانت سعاد) وإنما دخل فيها دخول التفسير لها.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث عمر.

ونحـن يُطعـم عنـد القحـط مَطعَمُنـا ... مـن الشـواء إذا لم يـؤنس القـزع

إلى أن قال:

إنـا أبينـا ولم يـأب لنـا أحـد ... إنـا كـذلك عنـد الفخـر نرتفـع

في أبيات ذكرها، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «**قم فأجب الرجل**»، فقام، فقال على البديهة:

إن الـذوائب مـن فهـر وإخـوتهم ... قـد بينـوا سـننًا للنـاس تتّبـع

يـرضى بهـا كـلُّ مـن كانـت سريرتـه ... تقـوى الإلـه وكـل الخـير يُصـطنع

قـوم إذا حـاربوا ضرُّوا عـدوهمو ... أو حـاولوا النفـع في أشـياعهم نفعـوا

سـجية تلـك مـنهم غـير محدثـة ... إن الخلائـق فـاعلم شرهـا البـدع

إن كـان في النـاس سـباقون بعـدهمو ... فكـل سـبق لأدنـى سـبقهم تبـع

إلى أن قال:

لا يفخـرون إذا نـالوا عـدوهمو ... وإن أصـيبوا فـلا خـور ولا هلـع

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لخطيبُه أخطب من خطيبنا، ولشاعرُه أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا. فلما فرغ القوم أسلموا، وجوّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

وهذا مما يدل على إباحة ما تكتسبه المرأة على غنائها والدف فيه، فلا محظور في إباحة ما يتفضل به أهل الفضل عليها، وللفقراء من زاد الكرام نصيب، والنبي ﷺ قال: «**ما جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَمَا لاَ فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ**»[1]، وحسبنا إجازة رسول الله وتفضله على هؤلاء على شعرهم مع كونه في محض الفخر بأنسابهم، وقد نهى ﷺ عن الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب، وقد قال: «**مَا أُحِبُّ أَنَّ أُحُدًا لِي ذَهَبًا يَأْتِي عَلَيَّ لَيْلَةٌ أَوْ**

(١) متفق عليه من حديث عمر.

ثَلاَثٌ عِنْدِى مِنْهُ دِينَارٌ، إِلاَّ أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ، إِلاَّ أَنْ أَقُولَ بِهِ فِى عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا»[١]، أي عن يمينه وشماله ومن خلفه، لكون البخل هو من أبغض ما يتخلق به الرجل عند رسول الله ﷺ، وقد قال النبي ﷺ لبني ساعدة: «من سيدكم؟» قالوا: الجد[٢] بن قيس على أننا نبخِّله، قال ﷺ: «وأي داء أدوى من البخل، بل سيدكم عمرو بن الجموح»[٣] لهذا قال شاعرهم:

وقال رسول الله والحق قوله ... لمن قال منا من تُسمون سيدا
فقلنا له الجد بن قيس على التي ... نُبَخّله فيها وإن كان أسودا
فتى ما تخطى خطوة لدنية ... ولا باسط يومًا إلى سوأة يدا
فسود عمرو بن الجموح لجوده ... وحُق لعمرو بالندى أن يُسوَّدا
إذا جاءه السؤال أوهب ماله ... وقال خذوه إنه راجع غدا
فلو كنتَ ياجد بن قيس على التي ... على مثلها عمرو لكنت المسوَّدا

فهذه المرأة الأرملة التي مات عنها زوجها وعندها عدد من العيال وتسأل عن كسبها بالغناء والدف إذ لا كسب لها غير ذلك، فنقول: إن كسبها بهذه الطريقة حلال بلا شك إذا لم تتعمد الغناء الذي يثير الغرائز إلى الفجور وشرب الخمور وما هو بمعنى ذلك، إذ الأصل الإباحة، وقد تناول أساطين العلماء الأحاديث التي يزعمون بأنها تحرم الغناء فأخضعوها للطعن، وأنها كلها ليست بصحيحة ولا صريحة في التحريم، وممن قال ذلك الإمام ابن العربي إمام المالكية، وابن حزم، والغزالي في **إحياء علوم الدين**.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي ذر.

(٢) الجد بن قيس هو الذي اختفى خلف بعيره الأحمر عند بيعة الرضوان وقال لرسول الله ﷺ عند غزوة تبوك: إنني إذا رأيت بنات الأصفر لم أستطع الصبر عنهن فائذن لي في القعود، فأذن له، وأنزل الله فيه ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩].

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة.

أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾ [لقمان: ٦]. فاستنبطوا من هذه الآية تحريم الغناء ونسبوا القول إلى ابن عباس وابن مسعود، فإن هذا الاستنباط هو اجتهاد من بعض المفسرين وليس بنص قاطع على ما ذكروا، وليس بنص مرفوع إلى النبي ﷺ حتى يجب المصير إليه بالدليل القاطع والبرهان الساطع. ومجرد الغناء الخالي عن الخنا لا يحتمل التفسير بهذا لكون الآية دلت على من يشتري لهو الحديث ليضل به عن سبيل الله، وهذا يُحمل على من تصدى إلى الكتابة أو شراء الكتب المشتملة على الإلحاد والزندقة ليضل بها الناس عن الحق، لكون الجهد بالإلحاد والزندقة ونشره هو الغاية في إفساد البلاد وأخلاق العباد من كونهم يخرجون بسببه عن الصراط المستقيم ويتبعون طريقة المغضُوب عليهم والضآلين، خصوصًا إذا انضم إلى هذا الإلحاد والزندقة كونه يتخذ آيات الله هزوًا، فإن الاستهزاء بالله وبكتابه ورسوله والدين كفرٌ بالله عز وجل ﴿...قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]. مما يدل على أن هؤلاء كفروا بمجرد استهزائهم بعد إيمانهم، وأن مجرد الاستهزاء أحبط أعمالهم وألحقهم بالكفار، فما بالك بالمستهزئين الذين ليس معهم إيمان فإنهم أحق بالكفر، وهذا التفسير بما ذكرنا هو الذي ينطبق عليه معنى الآية، وهم الذين يصابون بالخزي في الدنيا حتى يغطي أقاربُهم وجوهَهم عند ذكرهم، ثم يخلّد لهم الذكر الخامل والسُّمعة السيئة.

و﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يشمل كل ما يتلهى به الإنسان في حياته، وقد سمى الله الدنيا لعبًا ولهوًا، فالمسابقة بالأقدام وبالإبل وبالخيل هو من لهو الحديث، وكذا المصارعة بالأجسام، والسباحة، والرماية، وكذا الغناء وضرب الدف عليه كل هذا من اللهو المباح، ومثله ملاعبة الرجل زوجته، وتأديبه فرسه، إذا لم يخرج عن حدود الحق إلى الباطل، وأشرها نشر الإلحاد والزندقة التي تنطبع في أخلاق أكثر العامة كما قيل:

إذا كنت من فرط السفاه معطلاً ... فيا جاهلُ اعلم أنني غير جاحِد

أخاف من الله العقوبة آجلاً ... وأعلم أن الأمر في يد واحد

فـإني رأيـت الـملحدين تعـودهم نـدامتُهم عنـد الأكـف اللواحـد

ونختم الكلام بكلمة كريمة ونصيحة حكيمة فيما يتعلق بالغناء والـمعازف وسائر الـملاهي، فنقول:

أولاً: إن الغناء في هذا العصر ألفاظه بذيئة، سخيفة يخجل العاقل من سماعها فضلاً عن ترديدها أو التغني بها.

ثانيًا: إن العالـم كله اليوم غارق في أمواج بحار الـموسيقى والغناء فأي خير جناه الناس من ذلك؟ ثم أليس استغراق الـمطروب في طربه يشل نشاطه ويقضي على همته واندفاعه إلى العمل ويغرق قلبه في الغفلة.

ثالثًا: لو أن أجهزة الأعلام سخرت هذا الوقت الـمهدور لتعليم الناس الخير وحملهم على فعله ألا يكون ذلك أصلح للناس وأنفع؟!.

رابعًا: إن هذا الذي يسمى اليوم بالفن من غناء ورقص وتمثيل وعزف لم يكن في عصر من العصور أكثر انتشارًا وضررًا منه في عصرنا.. فماذا يقدم الـمغنون والـمغنيات لأمتهم من الخير؟! وماذا تنفع التمثيليات والـمسرحيات التي تدَّعي الإصلاح وإثمها أكبر من نفعها؟!

***

حديث ليلى الأخيَليَّة مع الحجَّاج بن يوسف

هذه الـمحاورة الواقعة بين الحجاج وبين ليلى الأخيلية تعطي الطلاب والطالبات شيئًا من شرف أخلاق القدامى، وكون حبهم وعشقهم محفوفًا بالعفاف والإحسان، فهم يعدون النكاح الواقع بين الـمحبِّ ومحبوبته أنه رذالة ونذالة، وقد قيل: إذا نكح الحبُّ فسد. ولهذا قالت ليلى الأخيلية:

وذي حاجـةٍ قلنـا لـه لا تـبحْ بهـا فلـيس إليهـا مـا حييـت سـبيل

لنـــا صـــاحب لا ينبغـــي أن نخونـــه وأنـــت لأخـــرى صـــاحب وخليـــل

بخلاف الـمحبين من أهل هذا العصر، فإن غاية حب أحدهم لمعشوقته هو غزو ما سفل من خَلْقها وأخلاقها، لهذا لا تدوم الـمحبة بينهما لكون الرجل يعرض له من يرغب في حبه فينصرم حبله عن معشوقته، كما أن الـمرأة قد يعرض لها من ترغب في حبه فتنصرف عن معشوقها لعدم استدامة صلة ما بينهما، كما قيل:

علقتهـــا عرضًـــا وعلقـــت رجـــلاً غـيري وعلـق أخـرى غيرهـا الرجـل

قال أبو بكر بن الأنباري: حدثني أبي، قال: أخبرنا أحمد بن عبيد عن أبي الحسن الـمدائني عمن حدثه عن مولى لعنبسة بن سعيد بن العاصي قال: كنت أدخل مع عنبسة بن سعيد بن العاصي إذا دخل على الحجاج، فدخل يومًا فدخلت إليهما وليس عند الحجاج أحد إلا عنبسة، فأقعدني فجيء الحجاج بطبق فيه رُطب، فأخذ الخادم منه شيئًا فجاءني به، ثم جيء بطبق آخر حتى كثرت الأطباق، وجعل لا يأتون بشيء إلا جاءني منه بشيء حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهما، ثم جاء الحاجب فقال: امرأة بالباب، فقال الحجاج: أدخلها. فدخلت، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنه قد أصابت الأرض، فجاءت حتى قعدت بين يديه، فنظرت فإذا امرأة قد أسنَّتْ حسنة الخلق، ومعها جاريتان، وإذا هي ليلى الأخيلية، فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له، فقال لها: يا ليلى ما أتى بك؟ فقالت: إحلاف النجوم، وقلة الغيوم، وكلب البرد، وشدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرفد. فقال لها: صفي لنا الفجاج. فقالت: فالفجاج مغبرة، والأرض مقشعرة، والـمبرك معتل، وذو العيال مختل، والهالك للقل، والناس مستنون رحمة لله يرجون، وأصابتنا سنون مجحفة مبلطة لم تدع لنا هبعًا ولا ربعًا ولا عافطة ولا نافطة، أذهبت الأموال، ومزّقت الرجال، وأهلكت العيال. ثم قالت: إني قلت في الأمير قولاً. قال: هاتِ. فأنشأت تقول:

أحجـاج لا يُفْلَـلْ سـلاحُك إنهـا الـ ـــمنايا بكـــف الله حيـــث يراهـــا

أحجّـــاج لا تُعـــط العصـــاة مُنـــاهمُ ولا الله يُعطـــي للعصـــاة مُناهـــا

إذا هبط الحجاج أرضًا مريضة تتبَّع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العُضال الذي بها غلامٌ إذا هزَّ القناةَ سقاها
سقاها فرواها بشرب سجاله دماء رجال حيث مال حشاها
إذا سمع الحجاج رزء كتيبة أعدّ لها قبل النزول قِراها
أعدّ لها مسمومة فارسية بأيدي رجال يحلبُون صراها
فما ولد الأبكارُ والعون مثله بِبحر ولا أرض يجفّ ثَراها

قال: فلما قالت هذا البيت قال الحجاج: قاتلها الله، والله ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلت العراق غيرها. ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد فقال: والله إني لأعد للأمر عسى ألاّ يكون أبدًا. ثم التفت إليها فقال: حسبك. قالت: إني قد قلت أكثر من هذا. قال: حسبك. ويحكِ حسبك. ثم قال: يا غلام اذهب إلى فلان فقل له اقطع لسانها. فذهب بها، فقال له: يقول لك الأمير اقطع لسانها. قال: فأمر بإحضار الحجّام، فالتفتت إليه، فقالت: ثكلتك أمك، أما سمعت ما قال؟ إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة. فبعث إليه يستثبته، فاستشاط الحجاج غضبًا، وهمّ بقطع لسانه، وقال: ارددها. فلما دخلت عليه قالت: كاد وأمانة الله يقطع مقولي. ثم أنشأت تقول:

حجّاجُ أنت الذي ما فوقه أحدٌ إلا الخليفةُ والمستَغْفَرُ الصمدُ
حجاج أنت شهابُ الحرب إن لقحت وأنت لِلناس نورٌ في الدُّجى يَقِدُ

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أيها الأمير، إلا أنّا لم نر قط أفصح ولا أحسن محاورة، ولا أملح وجهًا، ولا أرصن شعرًا منها. فقال: هذه ليلى الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبها. ثم التفت إليها فقال: أنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة. قالت: نعم أيها الأمير، هو الذي يقول:

وهل تبكين ليلى إذا مُتُّ قبلها وقام على قبري النساء النوائح
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتُها وجاد لها دمع من العين سافح

وأغـــبط مـــن لـــيلى بـــما لا أنالـــه بـلى كـل مـا قـرّت بـه العـين طـائح
ولـــو أن لـــيلى الأخيليـــة ســـلمت عـــليّ ودوني جَنْـــدل وصـــفائح
لســـلّمت تســـليم البشاشـــة أو زَقَـــا إليها صـدىً مـن جانـب القـبر صـائح

فقال: زيدينا من شعره يا ليلى. فقالت: هو الذي يقول:

حمامـــةَ بطـــن الـــواديين ترنمـــي ســـقاك مـــن الغُـــر الغـــوادي مطيرُهـــا
أبينـــي لنـــا لازال ريشـــك نـــاعمًا ولازلـــت في خضـــراء غـــضّ نضـــيرُها
وكنـــتُ إذا مـــا زرتُ لـــيلى تبرقعـــت فقـــد رابنـــي منهـــا الغـــداةَ ســـفورُها
وقـــد رابنـــي منهـــا صـــدودٌ رأيتُـــه وإعراضـــها عـــن حـــاجتي وبســـورُها
وأشرف بـــالقور اليفـــاع لعلنـــي أرى نـــار لـــيلى أو يـــراني بصـــيرُها
يقـــول رجـــال لا يضـــيرك نأْيُهـــا بـلى كـل مـا شـفَّ النفـوسَ يضـيرُها
بـلى قـد يضـير العـين أن تكثـر البكـا ويُمنـــع منهـــا نومهـــا وسرورُهـــا
وقـــد زعمـــت لـــيلى بـــأني فـــاجر لنفســـي تقاهـــا أوعليهـــا فجورُهـــا

فقال الحجاج: ما الذي رابه من سفورك؟ فقالت: أيها الأمير كان يلمّ بي كثيرًا فأرسل إليَّ يومًا أني آتيكِ، وفَطِن الحيُّ، فأرصدوا له، فلما أتاني سفرت عن وجهي، فعلم أن ذلك لشر، فلم يزد على التسليم والرجوع. فقال: لله درُّك، فهل رأيت منه شيئًا تكرهينه؟ فقالت: لا والله الذي أسأله أن يصلحك، غير أنه قال مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر، فأنشأت أقول:

وذي حاجـة قلنـا لـه لا تُـبحْ بهـا فلـــيس إليهـــا مـــا حييـــت ســـبيل
لنـــا صـــاحب لا ينبغـــي أن نخونـــه وأنـــت لأخـــرى صـــاحب وخليـــل

فلا والله الذي أسأله أن يصلحك ما رأيت منه شيئًا حتى فرق الموت بيني وبينه. قال: ثم مه، قالت: ثم لم يلبث أن خرج في غزاة له فأوصى ابن عم له إذا أتيت الحاضر من بني عبادة فنادِ بأعلى صوتك:

عفــا الله عنهــا هــل أبيــتن ليلــة مــن الــدَّهْر لا يســرى إليَّ خيالهــا

أقول:

وعنــه عفــا ربّي وأحســن حالــه فعــزت علينــا حاجــة لا ينالهــا

قال: ثم مه قالت: ثم لم يلبث أن مات، فأتانا نعيُه، فقال: أنشدينا بعض مراثيك فيه، فأنشدت:

لتبـك العـذارى مـن خفاجـة نسـوةٌ بــماء شــؤون العــبْرة الــمتحدّر

قال لها: فأنشدينا. فأنشدته:

كــأن فتــى الفتيــان توبــة لم يُــنخ قلائـص يفْحصـنَ الحصـى بـالكراكر

فلما فرغت من القصيدة قال محصن الفقعسي- وكان من جلساء الحجاج-: من الذي تقول هذا فيه فوالله إني لأظنها كاذبة. فنظرت إليه، ثم قالت: أيها الأمير، إن هذا القائل لو رأى توبة لسرّه ألا تكون في داره عذراء إلا هي حامل منه. فقال الحجاج: هذا وأبيك الجواب، وقد كنتَ عنه غنيا. ثم قال لها: سلي يا ليلى تُعط. قالت: أعط فمثلك أعطى فأحسن. قال: لكِ عشرون. قالت: زد فمثلك زاد فأجمل. قال: لك أربعون. قالت: زد فمثلك زاد فأكمل. قال لك: ثمانون. قالت: زد فمثلك زاد فتمّم. قال: لكِ مائة واعلمي أنها غنم. قالت: معاذ الله أيها الأمير أنت أجود جودًا، وأمجد مجدًا، وأورى زندًا من أن تجعلها غنمًا. قال: فما هي ويحكِ يا ليلى. قالت: مائة من الإبل برعاتها. فأمر لها بها، ثم قال: ألك حاجة بعدها. قالت: تدفع إلى النابغة الجعدي. قال: قد فعلت. وقد كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ النابغة ذلك، فخرج هاربًا عائذًا بعبد الملك، فأتبعته إلى الشام، فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان، فأتبعته البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة، فمات بقومس ويقال بحلوان.

***